- تهذيب الأخلاق -

إن من مقاصد الحج تهذيب الأخلاق حيث يدفع المسلم إلى التحلي بمكارم الأخلاق والابتعاد عن مساوئها، وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ ﴾ [البقرة :١٩٧] وأشهر الحج هي شوال وذو القعدة وذو الحجة ، وقوله تعالى ﴿ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ﴾ أي فمن أحرم فيهن بالحج،وقوله ﴿ فَلَا رَفَثَ ﴾ الرفث هو إتيان النساء ودواعيه والكلام مع النساء في ذلك ، كما روي ذلك عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما وغيره ، ويبقى ذلك محرما بين الأزواج وزوجاتهم من وقت الإحرام بالحج إلى أن يتحللوا التحلل الأخير ، وذلك بعد أن يؤدوا المناسك الأربعة : رمي جمرة العقبة ،

والحلق أو التقصير ، والطواف والسعي ، وذلك كله – كما هو معلوم – بعد الوقوف بعرفة والمبيت بمزدلفة .

وقولـه تعالى ﴿ وَلَا فُسُوقَ ﴾ الفسوق يشمل جميع المعاصي ، كما ثبت ذلك عن ابـن عبـاس وغـيره ، فـالله تعالى بهذا ينهى عن التلبس بأي معصية من المعاصي بعـد الشروع في الحج، وذلك أن مـن أحـرم بـالحج أو العمـرة فإنه قد تلبس بعبادة الله تعالى كحال مـن دخـل في صـلاة فلا يجوز له – والحال هذه – أن يقع في شيء من المعاصي وهو يؤدي تلك العبادة ، والمعاصـي محرمـة في كـل حـين ولكن حرمتها تتأكد حينمـا يتلـبس الإنسـان بعبـادة كمـا تتأكد بحرمة الزمان والمكان ، وفي هذا تعويد للمسلم على اجتناب المعاصي في كل أوقاته ، لأنه حينما يمنع نفسه مـن المعاصي في أيام الحج فـإن ذلـك يدفعـه إلى عـدم معـاودة الوقوع في المعاصي بعد ذلك .

فالله سبحانه قد شرع الحج إلى بيته المحرم ليكون في ذلك تزكية للنفوس وتطهير لها من أدران المعاصي والمخالفات ، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ « من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه » أخرجه الإمام البخاري [1] .

وقوله « من حج هذا البيت » يتضمن الإخلاص في الحج لقول الله تعالى ﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ وذلك بأن يكون الهدف من الحج بلوغ رضوان الله تعالى، لامراءاة الناس ولا طلب الدنيا وأن يحضر قلبه مع الله تعالى في أداء أنساك الحج ، فإذا قام بأداء المناسك على وجهها التام واجتنب جميع المعاصي والمخالفات كان جديرًا بأن يحصل على هذا الوعد الكريم بتطهيره من جميع ذنوبه وتكفير سيئاته ، وهذا مقصد عظيم من مقاصد الحج ، يجعل قلوب المسلمين تهفو إلى هذا البلد

(١) صحيح البخاري رقم ١٨١٩(٤/ ٢٠) .

الأمين الـذي جعلـه الله مطهـرة للقلـوب مـن الأرجـاس والذنوب .

وقوله تعالى﴿ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ ﴾ الجدال في الحج هو السباب والمنازعة ، قال عبد الله بن عبـاس رضـي الله عنهمـا ﴿ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ ﴾ المـراء والملاحـاة حتـى تغضب أخاك وصاحبك ، فنهى الله عن ذلـك ، وكـذلك روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه [1] .

وفي هذا يقول رسـول الله ﷺ : « مـن قضـى نسـكه وسلم المسلمون من لسانه ويده غفر له ماتقدم من ذنبـه » أخرجه الحافظ عبد بن حميد في مسنده مـن حـديث جـابر بن عبد الله رضي الله عنهما [2] .

ومن هذا يتبين لنا أن أحد مقاصد الحج المهمة وهـو مغفرة الذنوب مرهون بسلامة المسلم من أذية الحـاج مـن

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٢٤٦ – ٢٤٧ .

(٢) المنتخب لعبد بن حميد ، رقم ١١٤٨ (٢/ ٢٠٦) .

يـده أو لسـانه ، وأن بسـط الأيـدي والألسـنة في أذى المسـلمين وتـرويعهم وإشـغالهم عـن أداء نسـكهم علـى الوجه الأكمل مانع من حصول الهدف السامي الذي مـن أجله شد الحاج رحاله وتغرب عن أهله وتكبد المتاعـب ، وإن الذين يجتمعون ويتحزبون لإزعاج المسلمين وإثارتهم قـد أسـاؤوا إلى أنفسـهم وإلى المسـلمين وأصـبحوا عونـا للشـيطان الـذي يحـرص جاهـدا علـى أن يفسـد علـى المسلمين حجهم ، ويضيع عليهم الهدف الـذي مـن أجلـه أنفقوا أموالهم وأتعبوا أجسامهم .

فعلى المسلمين أن يعوا الحكمة السامية مـن حجهـم وأن يفهموا الوسائل التي توصلهم إلى تحقيق هذه الحكمـة والوسائل التي تمنعهم من تحقيقها .

إن كثيرًا من المسلمين حين يسـمعون قـول الـنبي ﷺ «رجع من ذنوبه كيوم ولدتـه أمـه » تتـوق أنفسـهم إلى أن يرجعوا من حجهـم مغفـورا لهـم مطهـرين مـن الـذنوب والآثام ، ولكن بعضـهم يظنـون أن الحـج هـو مجـرد أداء

المناسك المفروضة والواجبة ، ولايهتمون بأمر السلوك الذي يجب أن يلتزم به الحاج ويستقيم عليه ، ولذلك تقع الخصومات بين بعض الحجاج وتسود الأثرة ويغلب حب الذات بدلا من الإيثار وحب الصالح العام ، ولو علموا أن مغفرة الذنوب مشروطة بكف الأذى عن المسلمين بجميع أشكاله لراجعوا أنفسهم كثيرا إن كانوا صادقين في طلب المغفرة والتطهير من الذنوب .

فإذا ازدحم الطريق بالناس بحيث لايتسع إلا للقليل منهم فالإيثار يقتضي أن يقدم بعضهم بعضا، خصوصا الضعفاء منهم بمودة وانسجام ، أو على الأقل أن يعطى صاحب الحق حقه فيتقدمون الأول فالأول .

وإذا ازدحم الناس على الماء فالإيثار يقتضي أن يُقدَّم كبار السن الذين لايستطيعون الوقوف طويلا ومن لايريد إلا القليل من الماء للشرب أو الوضوء ، أو على الأقل أن يقفوا بانتظام وتعطى الأولوية للمتقدم .

وإذا ازدحم الحجاج عند أداء المناسك فليعلم المسلم أن إنقاذ أخيه المسلم من الهلاك أفضل من أداء النسك لأن النسك يمكن تأجيله وإنقاذ مسلم أمامه يوشك على الهلاك لايمكن تأخيره، فكيف بمن يسهمون في إهلاك المسلمين ؟!

وأي نسك هذا الذي يؤدونه وهم يدفعون إخوانهم يمينا وشمالا ؟!

ومن هذا ندرك أن بعض الحجاج لايفقهون المعاني الكاملة للحج ولا مقاصده السامية ، ولايفهمون أن الحج يجب أن تسوده الرحمة والمودة ، وأن من كمال الحج أن توثر أخاك المسلم على نفسك بأسباب الراحة ، وأن من لوازمه أن يعرف الحاج حقوق إخوانه الحجاج فلا ينتهك شيئا منها .

وفي قول الله تعالى ﴿ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ ﴾ نفى الله سبحانه وجود الجدال في الحج، والنفي أبلغ من النهي،

وهو يتضمنه ، فالمعنى ليس من شأن الحج أن يكـون فيـه جدال ، ومن جادل في الحـج فقـد اسـتهان بهـذه العبـادة العظيمة .

obeikandl.com

- التعارف بين المسلمين -

إن من مقاصد الحج التعارفَ بين علماء المسلمين وقادتهم ووجهائهم ، فالعلماء قد لا يلتقي بعضهم ببعض إلا في موسم الحج ، وطلاب العلم قد لا يستطيعون مقابلة العلماء والتلقي عنهم إلا في هذا الموسم، حيث يَفِدُون إلى مكة المكرمة من عموم أقطار الأرض، ومن الصعب على طلاب العلم أن يرحلوا من أقصى الأرض إلى أقصاها للقاء العلماء ، لكن الحج يقرب ذلك البعيد ، فيجمع أهل العلم في ذلك الموسم الكريم، فيتدارسون العلم ويتذاكرون فيما بينهم .

لقد كان الحج مدرسة علمية يكمل فيها أهل العلم ما بدؤوه ، ويحصلون فيها ما فقدوه ، ففي علم الحديث مثلا كان طلاب العلم يتعلمون الأحاديث النبوية بأسانيدها ويروونها عن العلماء الذين يتيسر لهم لقاؤهم في بلادهم ، ولكن كان لديهم طموح لتحصيل السند

العالي، فإذا كان بين الراوي والنبي ﷺ خمسة رُواة فهو يطمح إلى أن يكون بينه وبينه أربعة رواة فقط، ولهذا كانوا يرحلون إلى البلاد التي قد تكون بعيدة من أجل الحصول على السند العالي ، فإذا كان موسم الحج فإنهم يرون فيه فرصة للقاء العلماء الذين يَفِدُون من أقطار الأرض، فلعلهم يجدون شيوخ شيوخهم فيروون عنهم الأحاديث، وبذلك يحذفون من أسانيدهم رجلا ويظفرون بالأسانيد العالية .

ومن ذلك في سبيل المثال أنه لما قدم معاوية بن صالح بن حُدير قاضي الأندلس إلى الحج وكان يروي صحيفة على بن أبي طلحة عن ابن عباس اجتمع على الرواية عنه أهل الحديث حتى الأكابر منهم كسفيان الثوري وعلي بن مهدي طلبًا لعلو الإسناد [1] .

(١) سير أعلام النبلاء ٧/ ١٦١ .

وكذلك الفقهاء فإن الحج فرصة مهمة لاجتماعهم وطرح قضايا الفقه التي تحتاج إلى نظر واجتهاد وتبادل الآراء فيما بينهم ، ومن المعلوم أن معرفة واقع الأمة له أثر مهم في الاجتهاد ، وذلك في المسائل التي تتعلق بحياة الناس ، وحينما يَفِدُ إلى مكة في موسم الحج الفقهاء من أقطار الأرض يكون في ذلك إثراء لفقه الواقع ، حيث يذكر فقهاء كل بلد واقع مجتمعهم في القضايا الفقهية التي يتم بحثها .

وقد تعددت المجامع الفقهية في العالم الإسلامي وفي بلاد الأقليات الإسلامية ، فمن المناسب أن يكون للفقهاء اجتماع عام يضم ممثلين عن كل المجامع ، وإن من المناسب أن يكون هذا الاجتماع في مواسم الحج .

وإذا كان الحرم المكي الشريف والأماكن المقدسة في منى وعرفات هي مكان تجمُّع العلماء وطلاب العلم في العصور السابقة فإنها لاتزال كذلك ، إضافة إلى استحداث وسائط أخرى مثل إقامة المؤتمرات والملتقيات

التي يُدعَى لها عدد مختار من علماء المسلمين ويتم فيها تدارس بعض قضاياهم المعاصرة .

ونظرًا لصعوبة الاتصال في العصر الحاضر لكثرة الحجاج فإنه يمكن استعمال وسائل الاتصال الحديثة الجماعية كالإذاعة والرائي ، والفردية كالهاتف ، من أجل التبليغ واللقاء الفكري .

فالحج وسيلة مهمة للتعارف بين أهل العلم معلمين ودارسين ، وهذا التعارف بين أهل العلم يُعدُّ خطوة أولى في تكوين الأخوة الإسلامية والرابطة الدينية بين المسلمين.

هذا وإن هذا الهدف من التلاقي والتعارف وتبادل الرأي ليس خاصا بعلماء الدين ،بل هو عام لكل فئات الأمة وتخصصاتهم ، فالحج فريضة على كل مسلم، ولابد لكل مسلم أن يحج ، ومن الممكن أن تنسق الجهود لتلاقي وتعارف أصحاب كل التخصصات مع من يشاركونهم في تخصصاتهم ، فقادة الأمة وزعماؤها ينبغي

أن يتعارفوا من خلال موسم الحج وأن يلتقوا وأن يتبادلوا الرأي في طرح مشكلات المسلمين، وأن يتشاوروا في العلاج الأمثل لحلها ، وكذلك كل فئات المجتمع الإسلامي .

وبهذا التخطيط والتنسيق يمكن أن يكون موسم الحج منطلَقًا لمواسم أخرى تخدم الأمة الإسلامية وترفع من مستواها العلمي والإداري .

وإذا كان المفسرون قد أدخلوا منافع الدنيا في تفسير قول الله تبارك وتعالى ﴿ لِّيَشْهَدُواْ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ ﴾ [الحج:٢٨] فإن هذه اللقاءات المذكورة تُعدُّ من منافع الآخرة فهي أولى بالذكر والاعتبار .

- تثبيت الأخوة الإسلامية -

إن من مقاصد الحج تثبيت الأخوة الإسلامية وتقويتها ، فالحج هو القمة العليا لتكوين الأخوة الإسلامية التي من عواملها الأولى شرعية صلاة الجماعة ، حيث يجتمع أفراد الحي الواحد خمس مرات في اليوم والليلة ، فيتعارفون فيما بينهم ، وتتقوى علاقاتهم ، وتنمو في قلوبهم المحبة في الله والأخوة الإيمانية ، ثم تتوسع دائرة هذه الأخوة في صلاة الجمعة ، حيث يجتمع أبناء البلد الواحد أو بعضهم مرة كل أسبوع ، ثم يجتمعون بصورة أوسع مرتين في العام في صلاة العيدين .

وفي الحج تبلغ الأخوة الإسلامية كمالها في القوة والشمول ، حيث يجتمع وفود المسلمين جميعا في الأماكن المقدسة ، ويشارك فيها كل مسلم مرة على الأقل في عمره .

- توجيهات لما بعد الحج -

لقد أمرنا الله عز وجل بإخلاص الحج والعمرة له وحده جل وعلا فقال سبحانه ﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ فالحج والعمرة يجب أن يكونا خالصين لله تعالى وحده، بحيث تكون نية الحاج والمعتمر التقرب إليه سبحانه لا مراءاة الناس ولا طلب تحسين السمعة أمامهم.

فإذا كنت أيها الحاج ممن حاز على شرف الإخلاص وأديت الحج والعمرة لله عز وجل وحده فداوم على ماكنت عليه من هذا التجرد والإخلاص ، ولاتنتكس بعد حجك بمزاولة أعمال ظاهرها الصلاح وباطنها مراءاة الناس والسباق نحو اكتساب السمعة عندهم .

فإنك لو فعلت ذلك يكون الشرك قد تسرب إلى قلبك ، فإن حقيقة التوحيد أن يمتلئ قلبك بتعظيم الله جل وعلا وإجلاله بحيث لايكون فيه متسع لاتباع هوى النفس أو أهواء البشر ، فإذا تسربت القوى الخفية إلى

القلب فإنها تزاحم وجود الإيمان بالله عز وجل في القلب، وبالتالي تتشكَّل التصورات الفكرية بناء على ذلك ، ويتبعها السلوك العملي ، فإذا كان وجود الإيمان بالله تعالى خالصًا في قلب المؤمن فإن جميع تصوراته وأنماط سلوكه تكون منسجمة مع التوحيد الخالص، وعلى هذا المستوى الإيماني كان الصحابة رضي الله عنهم، حيث كانت أعمالهم ترجمانًا لمعتقدات قلوبهم ، فلما كان سلوكهم حسنًا دلَّ ذلك على صفاء تصوراتهم، وهذا بالتالي دليل على إخلاص قلوبهم وامتلائها بالإيمان بالله عز وجل ، كما قال رسول الله ﷺ عن عمار ابن ياسر رضي الله عنه « ملئ عمار إيمانًا إلى مشاشه »[1] والمشاش أطراف العظام كالمرفقين والكتفين ، وهو تعبير عن بلوغ الكمال في الإيمان .

(١) سنن النسائي ٨/ ١١١ ، سنن ابن ماجه رقم ١٤٧ ، المقدمة .

أما إذا تسرب إلى قلب الإنسان الخضوع لهوى النفس أو أهواء البشر فيما يتعارض مع طاعة الله جل وعلا فإن تصورات القلب تكون موزعة بين محاولة إرضاء الله تعالى ومحاولة إرضاء الآخرين ، وعلى قدر قوة الجذب في الطرفين تكون الهيمنة على التصورات والمشاعر وتوجيه أنماط السلوك .

وقد يغرر المرء بنفسه باعتقاد أنه من أهل التوحيد الخالص ، بينما هو قد يطيع هوى نفسه في معصية الله تعالى ، وقد يخضع لطاعة الناس في معصية الله عز وجل ، فهذا يكون قد وقع في نوع من الشرك الخفي ، فإن الله جل وعلا قد حكم على الذين اتبعوا أهواءهم وأطاعوا غيرهم في معصية الله سبحانه بأنهم قد اتخذوا من دونه عز وجل آلهة وأربابًا ، كما في قوله تعالى ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ [الفرقان : ٤٣] وكما في قوله جل وعلا ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ

وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣١] وفي معنى هذه الآية أخرج الإمامان الترمذي والطبري من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه : أنه دخل على رسول الله ﷺ وهو يقرأ هذه الآية ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ فقال : إنهم لم يعبدوهم ، فقال ﷺ : «بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم» (١) .

وهذا يعني شرك الطاعة فإنه داخل في العبادة ، وإذا حدثت طاعة المسلم هواه أو طاعة الآخرين في معصية الله تعالى فإن ذلك يدخل تحت دائرة الشرك الأصغر مالم يصرف للمخلوق نوعا من العبادة كالسجود والطواف والدعاء أو يتعمد تحليل ماحرم الله أو تحريم ما أحل الله كما فعل النصارى فإن ذلك يكون من الشرك الأكبر .

---

(١) سنن الترمذي ، رقم ٣٠٩٥، تفسير الطبري (١٠/ ١١٤) .

فالذي يؤدي الحج ثم يقع في أي نوع من أنواع الشرك فإنه لم يكتسب من حجه دروسًا في التوحيد الخالص لأنه قد وقع بعد ذلك في الشرك .

وإذا كنت أيها الحاج قد استقمت في حجك على آداب الإسلام فلم تسب المسلمين ولم تجادلهم بالباطل ولم توقع الأذى والضرر بهم فداوم على الاستقامة على هذه الأخلاق الإسلامية، فإن تلك الأخلاق العالية ليست من خصائص أيام الحج ، بل هي مطلوبة منك في كل أيامك.

وإذا كنت أيها الحاج قد عصمت نفسك عن المعاصي واستقمت على الطاعات في أيام الحج فاجعل من هذه الاستقامة درسًا نافعًا لك في سائر أيامك فإن الله عز وجل الذي خشِيتَه وراقبته واتقيته في أيام الحج عالم بك ومطلع على مكنونات ضميرك في كل أيامك وسيحاسبك على كل صغيرة وكبيرة فعلتها ، فاستقم على طاعته حتى تفارق روحك جسدك .

وإن مما يطلب من المسلم أن يدوم على الأعمال الصالحة سواء في الواجبات أو النوافل، فأما الواجبات فإنه يجب عليه أن يؤديها كاملة ، وأما النوافل فإنه ينبغي له أن يدوم على مايقوم به من العمل وإن قَلَّ ، وأن لاينقطع عنه ، وأن لايكون توجهه إلى الأعمال الصالحة في المناسبات والمواسم وقد أثنى الله عز وجل على الدائمين على الأعمال الصالحة فقال تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ﴾ [المعارج : ٢٣] فينبغي للمسلم أن يستديم على العمل الصالح في باب النوافل وإن كان قليلاً ، فالدوام على القليل خير من الكثير مع الانقطاع كما أخرج الحافظ مسلم – رحمه الله – من حديث أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) : « أن رسول الله ﷺ سئل أي العمل أحب إلى الله ؟ قال : أدْومُه وإن قل »[1] .

وأخرج الحافظ أبو عبد الله البخاري – رحمه الله –

(١) صحيح مسلم ، رقم ٧٨٢/ ٢١٥ ، صلاة المسافرين (ص ٥٤٠) .

من حديث أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) : أن النبي ﷺ دخل عليها وعندها امرأة ، قال : من هذه ؟ قالت فلانة – تذكر من صلاتها – قال : مه ، عليكم بما تطيقون فو الله لا يمل الله حتى تملوا ، وكان أحب الدين إليه مادام عليه صاحبه »[1] .

(١) صحيح البخاري ، رقم ٤٣ ، الإيمان (١/ ١٠١) .

obeikandl.com